أ.د. مصطفى البشير قط ـ جامعة المسيلة ـ الجزائر
bachir_ga07@yhaoo.fr

سيكولوجية الصورة الشعرية

The psychology of poetic image

تاريخ الاستقبال / Date de réception	تاريخ القبول / Date d'acceptation
21.02.2019	13.03.2019

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة سيكولوجية الصورة الشعرية وذلك من ناحيتين: الناحية الأولى هي علاقة الصورة الشعرية بنفسية المبدع باعتبارها وثيقة الصلة بقائلها تنعكس نفسيته على ظلالها وتتطبع بطابعها. والناحية الثانية علاقة الصورة الشعرية بنفسية المتلقي من حيث أنها شديدة التأثير على نفسية متلقيها بما تحدثه من توازن سيكولوجي مبعثه الشعور باللذة والارتياح كما بين ذلك نقادنا القدامى، وتم تأكيده في النقد المعاصر.

الكلمات المفتاحية

سيكولوجيا، الصورة، الشعر.

Abstract

This research deals with the psychology of the poetic image in two ways:

The first aspect is the relation between the poetic image and the creative psyche, as it is closely related to the one who said it, whose psychology is reflected in its shadows and is characterized by its own characteristics.

The second aspect is the relation of the poetic image image with the psyche of the recipient because it has a great effect on the their psyche, with the psychological balance it produces, which is the result of the feeling of pleasure and satisfaction as expressed by the our critics in the past, and confirmed in the contemporary critic.

key words
Psychology, image, poetry.

تعد الصورة من أهم مكونات الخطاب الشعري التي تميز شعريته ذلك أن الشعر في أبسط تعاريفه هو رسم بالكلمات ، وهو مفهوم يحدد التداخل بين الفنون بأنواعها.

ويبدو تحديد مفهوم معين للصورة الشعرية من الصعوبة بمكان إذ حاول كثير من النقاد تحديد مفهوم لها كل حسب منزعه الفكري واتجاهه النقدي: فقد عرفها الشاعر إزرا باوند Ezra Baound بأنها: تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن، وعرفها "هويلي hwili" بقوله: إنها الشعور المستقر في الذاكرة، الذي يرتبط في سرية بمشاعر أخرى، ويعدل منها، وعندما تخرج هذه المشاعر إلى الضوء وتبحث عن جسم فإنها تأخذ مظهر الصورة في الشعر والرسم أو النحت، وإن كان هذا لا يتضح في الموسيقى.

فالصورة الشعرية إذن كما يظهر من التعريفين السابقين أساسها عنصران متشابكان، لا يمكن الفصل بينهما في تشكيلها هما: العاطفة والعقل(01)، ينشأ إحساس عاطفي ثم سرعان ما يتحول إلى فكرة لا يمكن لها أن تبقى مجردة، فتتسربل بسربال الخيال تحت تأثير العاطفة، فتظهر في الصورة الشعرية الفنية، فالصلة إذن بين الصورة الشعرية ونفسية الشاعر صلة قوية جدا، وفي هذا المقال القصير سوف نحاول الكشف عن خفايا هذه الصلة القوية مبتعدين قدر الإمكان عن المتاهات والتعقيدات الفلسفية التي غرق فيها النقد الأدبي الحديث، وإذا كان كل مذهب أدبي غربي ينظر إلى الصورة الفنية نظرة تختلف عن المذاهب الأخرى، فإننا لن نتكلم في هذا البحث الموجز على الصورة الفنية وفق مفهوم كل مذهب من هذه المذاهب، بل سوف نتكلم عليها بصفة عامة مجملة، كما يتراءى لنا من خلال كل هذه المذاهب الأدبية (02).

وما أجدرنا أن نطرح بادئ ذي بدء هذا السؤال ليكون منطلقنا في الكشف عن هذه الصلة الحميمة بين الصورة الشعرية ونفس الشاعر، هل الشاعر في صوره يحاول أن ينسق ذاته وفقا للوجود الخارجي، أم ينسق الوجود الخارجي وفقا لذاته؟ وبمعنى آخر هل يصف الشاعر ذاته من خلال الطبيعة أم يصف الطبيعة من خلال ذاته؟ إن هذين الموقفين الفنيين يلخصان فلسفة الفن قديما وحديثا (03).

في رأينا أن الشاعر يصف الوجود الخارجي الطبيعي من خلال ذاته، ذلك أنه يخضع الطبيعة لمختلف انفعالاته النفسية وعواطفه الذاتية، فيصف هذا الوجود الخارجي كما يتراءى له هو، ووفقا لحالته النفسية، وتصوراته الخاصة، فيسقط ذاته على هذا الوجود

الخارجي ليغدو رمزا لنفسيته، ذلك أن المفهوم المعاصر للشعر يختلف عن المفهوم القديم، فإذا كان الشعر قديما يعرف على أنه "الكلام الموزون المقفى" على النحو الذي نجده عند قدامة بن جعفر وعند ابن طباطبا العلوي مثلا، فإن المفهوم المعاصر للشعر يختلف عن المفهوم القديم اختلافا جوهريا، فإذا كان النقد القديم ينظر إلى الشعر نظرة شكلية خارجية، فإن النقد المعاصر ينظر إليه نظرة ضمنية جوهرية، فليس الشعر مجرد أوزان وقواف مرصوفة، بل هو كشف وإشراق يطالع النفوس فيعبر عن معاناتها بآلامها وآمالها، مفهوم الشعر المعاصر كما يحدده ت.س. إليوت Elyote "هو خلاصة المعرفة البشرية" ويقول الشاعر والناقد الإنجليزي وردز ورث Words Worth- في مقدمته لديوان "غنائيات"(04) "إن كل شعر جيد هو فيض تلقائي لمشاعر قوية" ذلك أن غاية الشاعر أن يعبر عن عاطفة أحسها، فتتحول العاطفة إلى فكرة ذهنية، ولكي تظهر هذه الفكرة إلى الوجود لا بد لها من ارتداء الصورة الفنية، فالصورة الفنية هي التي تحمل الفكرة إلى المتلقين، والحقيقة النقدية أن الخيال الذي تتولد منه الصور الفنية هو وليد العاطفة، وبذلك فإنه لا يمكن لنا أن نفصل بين العاطفة وبين الصورة، والشاعر الانطباعي الأصيل الذي يعبر عن نفسه بصدق وإخلاص لا يمكن له أن يجد صورا جاهزة معدة للتعبير عن مشاعره وأفكاره، بل إنه يقدمها إلى الآخرين في صورتها الخاصة، تلك الصورة التي تتولد تلقائيا مع الشعور نفسه أو الفكرة، وقد عرف معلمو البلاغة أن حفظ التلميذ للتشبيهات والإستعارات الجاهزة لا يصنع منه شاعرا أصيلا، إذ أن هذه البلاغة لا بد أن تبدأ حركتها من النفس فتنبت مع الشعور ولا تكون سابقة له، وليس هناك قائمة بالصور أو التركيبات الحسية ذات الشحنات المرصودة من المشاعر يمكن أن يلجأ إليها المتفنن حين يشاء ليتخذ منها أدوات للتعبير عن نفسه، ولو وجدت لضاعت كل أهمية للشعر، ولصرنا في غير حاجة إلى الشعراء"(05)، وبذلك ندرك أن هذه الصور الفنية ما هي إلا رموز لأفكار معينة تحمل في رحمها دلالات نفسية معينة، فالصورة الشعرية تنتمي إلى ذات الشاعر أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع.

وفي هذا الإطار نفهم أن الصور الفنية لوصف الأطلال في الشعر الجاهلي ما هي إلا رموز لدلالات نفسية تموج بها نفوس هؤلاء الشعراء، ذلك أن الشاعر من خلال وصفه لهذه الأطلال بما اعتورها من عوامل العدم والفناء، والحياة والنماء، إنما كان يعبر عن صراعه هو مع القدر، فالصور الطللية في الشعر الجاهلي هي رمز لمعاناة القسر والعبودية التي تمارس على الإنسان من جراء رزوحه تحت وطأة القدر، وعلى هذا يجب أن ننظر إلى الصورة الشعرية لا على أنها تمثل الوجود الخارجي الواقعي بل على أنها تمثل الجو الداخلي

النفسي للشاعر، وكل ما تمثله من الوجود الخارجي الواقعي هو المفردات الحسية المرئية التي يشكل بواسطتها الشاعر صوره الفنية، ليتمكن عن طريقها من التأثير على القارئ أو السامع، لذلك فإنه من الضرورات الأولية في قراءتنا للشعر أن ندرك الألفاظ إدراكا تصوريا، فنرى الصورة رؤية واضحة كما يقدمها الشاعر، وأنه بغير هذه الرؤية كما يذهب "جيننجز Jennings" في كتابه (الإستعارة في الشعر) "لا يجد القارئ أمامه بحال من الأحوال ما كان أمام الشاعر في أثناء الكتابة، وهو كذلك لا يستطيع أن يشاركه عواطفه بأي معنى من معاني المشاركة التامة" (06).

وقد يتبدى لنا من الوهلة الأولى أن الشاعر يزيف الواقع ويشوهه ويغالي به ويكذب فيه(07)، والحقيقة أنه لا تشويه هناك ولا تزييف، إذ ليس الذاتي تكرارا للواقع ونسخا ومحاكاة له كما يرى أفلاطون، بل إن الشاعر في رأيينا يستكشف المثال الضمني في الواقع - إن صح هذا التعبير - من خلال صوره الفنية، وحينئذ يبدو هذا الواقع الجديد المكتشف الذي يصوره الشاعر مغايرا للواقع الواقعي المرصود، ومخالفا له.

فالشاعر في نقله للصور الطبيعية لا يكمل النقص الموجود في الطبيعة كما يعتقد بعض النقاد(08)، ذلك أن الطبيعة من صنع الله، لذلك تكتسي صفة الكمال، أما الصورة التي يتولى نسجها خيال الشاعر فهي من صنعه، وكل عمل بشري يكتسي صفة النقص، لذلك لا يمكن القول بأن الشاعر يكمل النقص الموجود في الطبيعة عبر صوره التي يشكلها، إذ أن العمل الطبيعي أكمل من العمل البشري، وقد اعتبر الشاعر والناقد الانجليزي "كولريدج" الطبيعة أعظم الشعراء جميعا، وقال وليام واطسون عن الشعراء: "وقد اعتبرت هؤلاء كجزء من عظمة الطبيعة"، وكل ما في الأمر أن الشاعر يكشف عن الجوانب الجمالية في هذه الصور الطبيعية، ذلك أن الجمال الطبيعي شيء كامن خفي مستور لا يمكن لأي إنسان كان أن يكتشفه ويستشف معالمه، والشاعر وحده بما أوتي من رهافة حس ورقة نفس يستطيع الكشف عن الجوانب الجمالية في الطبيعة، ويزيح النقاب عنها ليبرزها ويظهرها في صور مرئية، ولذلك سمي الشاعر شاعرا، فهو يشعر بما لا يشعر به غيره من جمال الأشياء، ولنا أن ندعم رأينا بشهادة أحد الشعراء أنفسهم الذي كان يكتب نتاجه الأدبي بدم القلب لا بالحبر، جبران خليل جبران حيث يقول: "أما الشاعر فهو مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية، ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون، وأذن باطنية تسمع همس الأيام والليالي ما لا تعيه الأذان"(09).

وينبغي أن نشير إلى أن الصورة الشعرية باعتبارها وثيقة الصلة بنفسية الشاعر فإنها حتما سوف تتطبع بطابع هذه النفسية، ونفسية المجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر،

لهذا غلبت النزعة الوصفية المادية على معظم الشعر الجاهلي، لأن نفسية الجاهلي نفسية بدائية مادية تدرك معاني الأشياء في إطارها الحسي أو في أشكالها الظاهرة، وتعجز عن التجريد الذي يتداول المعاني في الذهن، وتعجز أيضا عن الرؤية التي تصهر العالم المادي وتذيبه وتوحد بينه وبين العالم الداخلي، لذلك قلما نشهد في الشعر الجاهلي صورا مبدعة تبصر فيما وراء الأشياء، وإنما هناك صور حسية تعيد الأشياء إلى ذاتها في حدود الأشكال والألوان والمظاهر(10)، غير أنه لا يمكن لنا أن نعمم هذه الظاهرة على كل الشعر الجاهلي، ذلك أننا نجد في ثنايا القصائد الجاهلية صورا ترسم مواقف الشاعر النفسية، فتكون بمثابة الإطار العام لمشاعره، كقول امرئ القيس في وصف الليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله	علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف اعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل	بصبح وما الإصباح منك بأمثل

إن هذه الصورة التي رسمها امرؤ القيس لليل، ليست هي صورة الليل الموجود في الطبيعة كما يراه الناس، وإنما هي صورة لليل الشاعر كما يراه وكما يحس به هو، لا كما هو موجود في الواقع، فهو يصف الليل من خلال ذاته كما يتراءى له، ونفس الشاعر المثقلة بأنواع الهموم هي التي أوحت له بصورة الليل الذي يشبه أمواج البحر المتلاطمة بما تبعثه في النفس من رهبة، ونحس بشدة وطأة الهموم على الشاعر وثقلها على نفسه من خلال تشبيه الليل بالجمل الذي تمطى بصلبه، وأردف بإعجازه، وناء بكلكله. كذلك الشأن بالنسبة للمقدمة الطللية في الشعر الجاهلي، فالشاعر الجاهلي لا يصف هذه الأطلال كما هي في الواقع وإنما يصفها من خلال ذاته كما يراها هو، بعدها رمزا للعدم والفناء الذي يمارسه الزمن على الإنسان والطبيعة، وبذلك تغدو صورة "الطلل" ذات بعد نفسي، وتغدو تجربة "الطلل" تجربة داخلية، فالشاعر يصف ذاته من خلال هذا الطلل أو يصف هذا الطلل من خلال ذاته، فالطلل هنا هو الشاعر نفسه، لأن القدر الذي تحكم في هذا الطلل، وعبث به تحويلا وتغييرا قد تحكم وطوى بذلك جزءا من حياة الشاعر وعمره.

وختاما نشير إلى أن الصورة الفنية تساعدنا على تنسيق مشاعرنا وعواطفنا من خلال ما تثيره فينا من إثارات(11)، وهذه الإثارات المتنوعة التي تثيرها فينا تختلف من شخص إلى آخر ، فليس من اللازم أن تثير الصورة في نفس شخص ما أو مجموعة من الأشخاص نفس ما أثارته عند شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص، ويرجع ذلك إلى أن الناس ليسوا نمطا واحدا في تكويناتهم النفسية، خاصة وأن الصورة الفنية تعبير عن نفسية الشاعر التي قد تتطابق مع بعض النفسيات، وقد تختلف مع بعض النفسيات

الأخرى، فإدراك الصورة إذن -كتشكيلها- يعتمد إلى حد بعيد على طبيعتنا النمطية وإدراكنا للصورة على هذا الأساس "ليس إلا إعادة لتشكيل الصورة وفق طبيعتنا النمطية، وليس غريبا بعد ذلك أن تختلف تأثراتنا أو مشاعرنا المثارة إزاء صورة بذاتها" (12)، لأن كل واحد منا يدركها حسب طبيعته النفسية، وهو الأمر الذي أكد عليه الفلاسفة المسلمون قديما، فابن سينا يرى أن المخيل هو "الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط لأمور، وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار وبالجملة تنفعل له إنفعالا نفسانيا غير فكري سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق"(13)، إن وظيفة الصورة في نظر ابن سينا مبني على الإثارة التي تحدثها في نفسية المتلقي، فتبعث في نفسه استقرارا واطمئنانا أساسه المشاركة الوجدانية والاستجابة الناجمة عن اشتراك الشاعر والمتلقي في الخبرات، وهي الاستجابة التي تهتم بها نظرية التلقي في النقد الأدبي المعاصر.

الهوامش

01. وهذا مذهب الناقد والشاعر الانجليزي "كوليردج"، فهو يرى أن الخيال هو خلق صورة لم توجد، وما كان لها أن توجد بفضل الحواس وحدها أو العقل وحده، وإنما صورة تأتي ساعة تسجيل الحواس والوجدان والعقل كلا واحدا في الفنان، بل كلا واحدا في الطبيعة. انظر محاضرات في نظرية الأدب: د/شكري عزيز الماضي، مطبعة البعث. قسنطينة. ص/ص: 43-.44

02. لمن أراد التوسع في مفهوم الصورة الشعرية عند مختلف المذاهب الأدبية نحيله على كتاب النقد الأدبي الحديث: د/محمد غنيمي هلال. دار العودة. بيروت. ص/ص: 410-441.

03. التفسير النفسي للأدب: د/ عز الدين إسماعيل. دار العودة. بيروت. ص: 65.

04. ديوان "غنائيات"، ديوان شعري ظهر سنة 1798 كتبه ووردز ورث . wordz worth مع صديقه الناقد والشاعر الانجليزي كولريدج koohlridge وقدم له ووردز ورث بمقدمة رائعة كانت الباعث وراء كتابة كولريدج كتابه الهام "سيرة أدبية". الذي يعتبر من أهم النصوص النقدية في التراث العالمي، وقد قام بترحمة ووردز ورث مع كتاب كولريدج سيرة أدبية، د.عبد الحكيم حسان، تحت عنوان: "النظرية الرومانتيكية في الشعر، سيرة أدبية لكولريدج". وقد أثر الناقدان المذكوران بكتاباتهما تأثيرا كبيرا في مسار الأدب والنقد الأوربي والعالمي، ينظر تحليل لمقدمة ووردز ورث وكتاب كولريدج في كتاب "النقد الأدبي" لأحمد أمين. ص/ص: 343-352 .

05. التفسير النفسي للأدب: د/عز الدين إسماعيل. ص: .72

06. المرجع نفسه. ص: 68.

07. والحقيقة أن بعض نقادنا القدامى قد وقعوا في هذا الوهم الكبير حينما زعموا أن "أعذب الشعر أكذبه".

08. أمثال هيجل Higuel الذي يرى أن الجمال الفني أسمى من الجمال الطبيعي لأنه نتاج للروح، فكل ما يأتي من الروح أسمى مما هو موجود في الطبيعة، وأردأ فكرة تخترق فكر إنسان أفضل وأرفع من أعظم إنتاج للطبيعة، وهذا بالتحديد لأنها تصدر عن الروح، ولأن الروحي أسمى من الطبيعي. ينظر كتاب "المدخل إلى علم الجمال" لهيجل، ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة. بيروت. ص: 03.

09. من مقدمة جبران خليل جبران لديوان إيليا أبي ماضي. طبعة دار العودة. بيروت. ص: .73

10. ينظر في هذا الصدد كتاب في النقد والأدب: لإيليا الحاوي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. الجزء الأول في مواضع متفرقة.

11. يعتبر الناقد الانجليزي المعاصر ريتشاردز Richards أول من أسس دعائم هذه النظرية النفسية الجديدة في كتابه "مبادئ النقد الأدبي" الذي نشره لأول مرة سنة 1924، و ترجمه محمد مصطفى بدوي، حيث أخذ يقيس الأدب بقيم سيكولوجية تقابل ما يتحدث عنه فلاسفة الجمال من قيم جمالية، وخلاصة هذه النظرية هو ما يحدثه الشعر في داخلنا من توازن بين العناصر النفسية الباطنية المتناقضة، وبذلك نشعر بلذة ونشوة أثناء قراءتنا للشعر.

12. التفسير النفسي للأدب: د/عز الدين إسماعيل. ص: 73.

13. فن الشعر من كتاب "الشفاء": لابن سينا. طبع مع فن الشعر لأرسطو. ترجمة وتحقيق د/ عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة. بيروت. ص: 161.